اعرف نفسك بنفسك

بحث فلسفى صوفى

بقلم
الأستاذ عبد الواحد يحيى

كثيرا ماتقال هذه الجملة — اعرف نفسك بنفسك — وكثيرا مايخفى القصد منها . وبين هذا القول ، وذلك الغموض . يعترضنا سؤالان : أولهما ماهو المصدر الأصلى للجملة ؟ وثانيهما ما مدلولها الحقيقى وما ترمى إليه من أغراض ؟

قد يخيل لبعض القراء ، عند أول وهلة . أن السؤالين مفترقان . لارابطة ولاصلة تجمعهما . وعند تدقيق النظر ، والبحث والتمحيص ، سيثبت لهؤلاء أن السؤالين مرتبطان ببعضهما كل الارتباط

***

إذا سألنا أغلب من درسوا الفلسفة اليونانية ، عن الأنسان الذى فاه بهذه الحكمة . لما تردد فريق منهم فى الأجابة بأن القائل سقراط . بينما يقول فريق ثان أفلاطون . ويقرر فريق ثالث بأنه فيثاغورس .

من هذا التضارب فى الرأى ، وذلك التباين فى القول . نستطيع الحكم بأن الجملة لم تقرأ فى كتاب لأحدهم ، باعتباره مصدرها

وقد يبدو حكمنا هذا جائرا ، ولكنه فى الحق حكم صحيح ، تثبت للقارىء صحته عندما يعلم أن اثنين من أولئك الفلاسفة ـ هما فيثاغورس ، وسقراط ـ لم يخلفا شيئا مكتوبا أو منقوشا

وأما ثالثهم أفلاطون ، فأن أحدا — بالغا مابلغ من العلم بالفلسفة — لا يستطيع أن يميز على التحديد ، ماقاله أفلاطون نفسه ، أو ماقاله بلسان أستاذه سقراط الذى لم نعرف أكثر آرائه ، إلا بواسطة أفلاطون ، وقد يكون أفلاطون

استقى من مدرسة فيثاغورس بعض التعاليم التى بثها فى محاوراته ، كما استقى من سقراط نفسه

من هذا نرى . أن من الصعب جدا ، أن تحدد نسبة بعض العبارات إلى أحد الثلاثة . فما ينسب لأفلاطون قد ينسب لسقراط ، بينما يكون سابقا لوقت الاثنين معا . فيكون صدر من المدرسة الفيثاغوريه ، إن لم يكن من فيثاغورس نفسه

(صورة أفلاطون . لمناسبة ذكر اسمه فى المقال)

والحق . هو أن المصدر الحقيقى لهذه الجملة ، لأقدم تاريخا من أولئك الفلاسفة أنفسهم ، بل لأكثر قدما من تاريخ الفلسفة نفسها ، وأكثر من هذا وذاك ، أنها أسمى مجالا من مجال الفلسفة ذاته

هذه العبارة . وجدت محفورة على باب هيكل أبولون فى دلفى . واتخذها

سقراط ، كما اتخذها غيره قاعدة لتعاليمهم ، وإن اختلفت التعاليم ، وتباينت المقاصد ـ ومن المحتمل جدا أن فيثاغورس استعملها قبل سقراط نفسه

والذى نفهمه من هذا . هو أن أولئك الفلاسفة حاولوا أن يظهروا لنا ، بل أظهروا لنا بالفعل . أن تعاليمهم لم تكن من تلقاء أنفسهم فحسب ، بل كانت من مصدر أسمى ، ومنزلة أرفع ، يتناسبان مع مصدر الوحى ومنزلة الأنبياء

لهذا نراهم مختلفين جد الاختلاف عن الفلاسفة الحديثين ، الذين يحاولون جهد طاقتهم أن يقولوا شيئا جديدا يدعون أنه من بنات أفكارهم الخاصة ، وأن ما يبدونه من آراء وقف عليهم . كأن الحقيقة ملك لشخص معين .

والآن لماذا كان يود الفلاسفة القدماء ، أن يربطوا تعاليمهم بهذه العبارة ، أو بعبارات تماثلها ؟ ولماذا يمكننا أن نقول إن هذه العبارة أسمى منزلة من الفلسفة نفسها ؟

للجواب على الفقرة الأخيرة من هذا السؤال ، نقول إنه منحصر فى المعنى الأصلى المقصود من اشتقاق كلمة الفلسفة نفسها ، التى قيل إن أول من استعملها فيثاغورس

فكلمة (فيلوسوفيا) تعنى تماما حب (سوفيا) أى (الحكمة) والميل للحصول عليها

وقد استعملت لتدل دائما على كل تحضير للحصول على الحكمة ، وعلى الأخص لمحبها ، حيث تساعده على أن يصير (سوفوس) أى (حكيما)

وبما أن الوسيلة لا تؤخذ على أنها غاية ، كذلك حب الحكمة ليس هو الحكمة بذاتها

وبما أن الحكمة ، هى بذاتها المعرفة الحقيقية الباطنة . فأنه يمكن القول بأن المعرفة الفلسفية ، إن هى إلا المعرفة السطحية الخارجية ، فليس لها من قيمة فى نفسها ، أو من نفسها . وماهى إلا درجة أولية ، فى الطريق المؤدية للمعرفة السامية الحقة ، التى هى الحكمة

معروف لمن درسوا الفلسفة ، أن معظم الفلاسفة القدماء ، كان لهم فى مدارسهم ، نوعان من التعليم : خارجى ، وداخلى : أما الأول ، فهو ما كان مكتوبا وأما الثانى ، فيصعب علينا معرفة طبيعته على التحقيق . وذلك لقصره على القليلين أولا ، ولصبغته السرية ثانيا ، وهذه الصبغة ، وتلك القلة ، دليلان على وجود غرض أسمى من تعلم الفلسفة الذى لا يستطيع تأديته . على أنا نعتقد ، أن لهذا التعليم السرى ، أقوى صلة مباشرة بالحكمة ذاتها ، والذى ما كان عماده فى حال ما ، العقل أو الاستدلال المنطقى كالفلسفة التى تعتمد عليهما ، و بهما سميت المعرفة العقلية

ومسلم من الفلاسفة القدماء ، بأن المعرفة العقلية — أى الفلسفة — ليست هى المعرفة العليا الحقة ، وبعبارة أخرى ليست هى الحكمة ذاتها

لكن . هل يمكن أن تعلم الحكمة كما تعلم المعرفة الخارجية بواسطة التلقين أو الكتب ؟ هذا مستحيل كل الاستحالة ، وسترى سبب ذلك ، والذى يمكننا أن نقرره ، هو أن التحضير الفلسفى ، ما كان ليكفى مطلقا . لأنه لا يختص إلا بقوى محدودة ، هى القوى العاقلة ، بينا يستمد التحضير للحكمة من الكون الكلى للانسان نفسه .

وإذن فهناك تحضير آخر للحكمة ، أسمى منزلة من التحضير الفلسفى ، لا يلجأ فيه إلى العقل ، بل إلى النفس والروح ، وهـــذا ما نستطيع تسميته بالتحضير الباطنى ، الذى عرف أنه من الصفات التى امتاز بها تلاميذ الفيثاغورية الممتازون ، والذى ظل حتى مدرسة أفلاطون ، بل حتى وصل إلى الأفلاطونية الحديثة بمدرسة الاسكندرية التى ظهر فيها ذلك التحضير ، بوضوح تام ، كما ظهر جلياً فى نفس الوقت عند أتباع الفيثاغورية الحديثة

لمثل هذا التحضير الباطنى ، تستعمل الكلمات على أنها صور رمزية لأحدى الوسائل التى تساعد على تركيز التأمل الباطنى ، و بهذا التأمل ، ينقل الانسان إلى بعض حالات نفسية وروحية يمكنه فيها أن يسمو فوق درجة المعرفة العقلية

التى وصل إليها سابقا . بما وأن هـــذه فوق مستوى العقل فأنها منطقيا فوق مستوى الفلسفة . إذ يستحيل علينا أن نعطى للفلسفة غير المعنى المعروف عنها ، فهى تستعمل دائما لتعيين ما يبحثه العقل فحسب . ومن الغرابة أن الفلاسفة الحديثين ، يقيدون الفلسفة بهذا القيد ، كأنها كاملة فى نفسها وغاب عن أذهانهم ، أن فوق فلسفتهم ، ماهو أسمى بكثير

وقدعرف هذا النوع من التعليم الباطنى فى الأقطار الشرقية ، قبل أن يعرف فى اليونان حيث كان معروفا عند الأخيرين ، باسم (ميستيريا) أى (المساتير) (١) وقد أدخل أولئك الفلاسفة — وخاصة فيثاغورس — تلك الميستيريات فى تعاليمهم لأنها كانت بالنسبة إليهم نوعا جديدا ، ومعنى حديثا للآراء القديمة . فقد كان يوجد أنواع كثيرة من تلك الميستيريات لها مصادر مختلفة . لكن التى ألهمها فيثاغورس ، وأفلاطون ، كان لها صلة بطقوس معبد أبولون

وقد احتفظت الميستيريات دائما بصبغة سرية ، ولذلك صار اسمها مرادفا للسر ، فالمعنى الأصلى لتلك الكلمة ، هو الصمت التام ، فكل الأشياء التى تتصل بالغيبيات غير قابلة للتفسير بواسطة الكلمات ، و بهذا لم يكن لها من طريق التعليم غير طريقة الصمت . وجاء الفلاسفة الحديثون فلم يعرف أكثرهم تلك الطريقة فهربوا خلف استعمال الكلمات التى ندعوها من طريقة التعليم الخارجى

و يمكننا أن نؤكد ، أن هذا التعليم الصامت ، كانت طريقته الأشكال والرموز و وسائل أخرى . يرادمنها تهيئة الأنسان لحالات باطنية ، يمكنه فيها — بعد خطوات متتابعة — أن يصل أخيرا إلى المعرفة الحقيقة ، وهذا هو الغرض الأساسى العام من (الميستيريات) وما يشابهها غرضا .

---

(١) لم نعثر على ترجمة دقيقة تؤدى المقصود من كلمة (ميستيريا) وقد راجعنا الأستاذ فريد بك وجدى فى هذا ، فعبر عنها بكلمة (المساتير) وكنا نرى أنها قد تكون الغيبيات أو الرموز أو الخفائية ، فلعل أحد حضرات القراء يجد لها معنى أدق ؟

المحرر

أما (الميستيريات) التى تتصل بطقوس أبولون ، أو بأبولون نفسه ، فانه ينبغى أن نشرح للقراء بأنه كان معروفا فى عرفهم ، بأنه رب الشمس والنور . والمعنى الروحى للنور . هو المبـدأ المشرق ، الذى منه تنبعث كل المعارف من علوم وفنون .

(ابولون لمناسبة ذكر اسمه فى المقال)

وقد قيل إن الطقوس الدينية لمعبد أبولون ، جاءت من الأقطار الشمالية . وقد ثبت هذا فى الكتب المقدسة كالفيدا الهندى والآفشتا الفارسى . وقد كانت دلفى معروفة بأنها المركز الروحى العـام . وقد وجد فى هيكلها ، حجر يسمى (أومفالوس) يرمز إليه بأنه مركز العالم

يظهر أن تاريخ فيثاغورس ، بل واسم فيثاغورس نفسه ، له صلة وثيقة بالطقوس الدينية لأپولون . فقد كان يسمى بيثيوس . وقد قيل إن بيثو هو الاسم القديم لدلفى ، وإن المرأة التى كانت تتلقى وحى الاله ، فى الهيكل كانت تسمى بيثيا . ومعنى (بيثيا جوراس) هو دليل (بيثيا) ودليل بيثيا هو نفسه ، وقيل أيضا أن البيثيا هى التى أعلنت أن سقراط أحكم الرجال . ومن هنا نستطيع أن نفترض أن لسقراط ، إتصالا خاصا بالمركز الروحى فى دلفى كفيثاغورس أيضا .

أضف إلى ذلك ، أن كل العلوم ، كانت تنسب إلى أبولون ، وبخاصة الهندسة والطب ، وقد كان أبولون يمثل نفسه كأنه يمارس هذه العلوم عامة ، والهندسة منها بوجه أخص ، وفى مدرسة فيثاغورس كانت الهندسة ، وسائر فروع الرياضيات ، هى الجزء العام فى التحضير للمعرفة العليا ، وعند هذه المعرفة ، لم تكن تلك العلوم لتترك جانبا بل كانت تستعمل كرموز للحقيقة الروحية . وقد كانت الهندسة لدى أفلاطون تحضيرا ضروريا لكل فرع من فروع تعاليمه ، حتى صح عنه قوله ، الذى حفره على مدخل مدرسته : (لايدخله إلا عالم بالهندسة) ، و يظهر معنى هذه الكلمات جليا إذا قورنت بقول آخر لأفلاطون نفسه (الآله يصنع الهندسة دائما) وهنا يجب أن نذكر أن المقصود بالآله المهندس، هو أبولون

وإذن فيجب ألا ندهش إذا ما رأينا الفلاسفة القدماء استعملوا تلك الجملة المحفورة على مدخل هيكل دلفى . بعد أن عرفنا صلة الاتصال بينهم ، وبين طقوس أبولون ورموزه

من كل ماتقدم يمكننا أن ندرك بسهولة ما ، الغرض الحقيقى لهذه الجملة ويمكننا أيضا أن ندرك أخطاء الفلاسفة الحديثين عنها ، وأساس خطأهم هذا ناشىء من أنهم أخذوا الجملة ، باعتبارها صادرة عن أحد الفلاسفة الذى كثيرا ماينسبون إليه فكرة كفكرتهم ، مع أن الحقيقة هى أن الفكرة القديمة كثيرا ماتختلف عن الفكرة الحديثة كل الاختلاف ، ولذا يعطى كثير منهم لهذه الجملة

معنى سيكوليجى (علم النفس) مع أن علم النفس هو دراسة الظواهر العقلية فحسب . أى دراسة الوصف الخارجى ـ لا الذاتى ـ للكائن الحى

ويرى بعض الحديثين ، وخصوصا الذين ينسبونها إلى سقراط ، أنها وضعت لغرض خلقى ، هو البحث عن قانون داخلى ، لاستعماله فى الحياة العملية ، وكل هذه التفسيرات الظاهرة ، ولو أنها أحيانا لا تكون باطلة ، فأنها على الأقل لا تكفى تماما ولا تحقق الصفة المقدسة التى كانت لهذه الجملة فى أول الأمر ، وهى التى لها معنى أعمق كثيرا من هذه التفسيرات الظاهرة .

فأنها أولا تفيد أن التعليم الخارجى لا يمكن أن ينتج معرفة حقيقية ، وهى التى يجدها الأنسان فى نفسه فقط ، ولا يخفى أن أى معرفة لا يمكن الحصول عليها إلا بالأدراك الشخصى ، وبدونه لا يكون للتعليم نتيجة فعالة ، والتعليم الذى لا يوقظ فيمن يتلقاه ما يناسبه لا يمكن أن يعطى أى معرفة بالمرة ، ولذلك قال أفلاطون إن كل ما يتعلمه الأنسان هو فى قرارة نفسه ، وأن تجاربه وما يحيط به من الخارج ما هى إلا أسباب تساعده ليصير عالما بما فى نفسه ، وهذا التيقظ الهام يسمى (أنامنيسيس) أى التذكر ، فأذا كان هـــذا صحيحا لأى معرفة ، فالأحرى أن يكون أصح بالنسبة للمعرفة الأسمى والأعمق ، فأذا أراد شخص الحصول على تلك المعرفة ؛ فأن كل الوسائل الخارجية الحسية تصبح شيئا فشيئا غير كافية ، حتى أنها أخيرا تكون عديمة الفائدة . ومع أنها ربما تساعد على الاقتراب عدة درجات نحو الحكمة ، فأنه لا يمكن بواسطتها الحصول عليها تماما ، ومن الشائع فى الهند أن (الجورو) الحقيقى أى (الشيخ) هو فى نفس الأنسان ، ولا ينبغى البحث عنه فى العالم الخارجى . أما المساعدة الخارجية فربما تكون ضرورية فى البداءة ، وذلك لتجهيزه ليصير قادرا على أن يجد فى نفسه بنفسه مالا يمكنه أن يجده فى العالم الخارجى ، وخصوصا ما كان فوق مستوى المعرفة العقلية ، فأنه يحتاج لتحقيق حالات تتعمق دائما فى باطن الكائن ، وتتجه نحو المركز المرموز إليه بأنه القلب ، وعنده ينبغى انتقال إحساس

الأنسان ، حتى يصير قادرا على الحصول على المعرفة الحقيقية . وهذه الحالات التى كانت تتحقق فى (الغيبيات القديمة) كانت درجات فى الأنتقال من العقل إلى القلب ، وقد كان فى هيكل دلفى حجر يسمى (الأومفالوس) يمثل به مركز الكائن الأنسانى ، وفى نفس الوقت مركز العالم ، وذلك للصلة التى بين (العالم الأكبر) و (العالم الأصغر) أى الأنسان ، ولذا تجد أن كل ما فى أحدهما يتصل اتصالا تاما بما فى الآخر . قال ابن سينا : —

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومما يدعوا إلى التسلية حقا ، هذا الاعتقاد الذى سار قديما بأن (الأومفالوس) كان قد سقط من السماء ، وإنك لتدرك شدة اعتقاد اليونان القدماء فى هذا الحجر إذا علمت أنه يقرب من اعتقادنا فى الحجر الأسود الذى فى الكعبة المقدسة . . .

وهذا التشابه الذى بين العالم الأكبر ، والعالم الأصغر (الأنسان) هو الذى يجعل من أحدهما صورة للآخر ، وهذا الاتصال بين العناصر التى يحتويها كلاهما ، يبين لنا أن الأنسان يجب أن يعرف نفسه أولا ، لكى يمكنه أن يعرف كل ماحوله ، لأنه يمكنه أن يجد كل شىء فى نفسه . ولهذا السبب تجد أن لبعض العلوم ـ وخاصة تلك التى كانت جزءا من المعرفة القديمة والتى أصبحت غير معروفة تقريبا عند الحديثين ـ معنيين : فى الشهود العينى تشير هذه العلوم إلى « العالم الأكبر فتعتبر صحيحة من هذه الوجهة . كما يوجد لها فى نفس الوقت معنى أكثر عمقا ، وهو مايشير إلى الأنسان ، وإلى الطريق الباطنى الذى بواسطته يمكنه إدراك المعرفة الحقيقية فى نفسه ، أى إدراك كائنه الخاص وقد قال أرسطو فى ذلك « الكائن هو كل من يعرف ماهيته » ولذلك حيث توجد المعرفة الحقيقية — لاظواهرها ولا شبحها — تندمج المعرفة والكون ويصيران شيئا واحدا : —

والشبح فسره أفلاطون ، بأنه كل معرفة بالحس ، حتى المعرفة العقلية ،

فأنها ولو أنها تتكون من درجة أعلا ، فأن مصدرها الأول ، هو الحس . والمعرفة الحقيقية ، هى فوق مستوى العـقل ، ولذا نرى أن تحقيقها ، أو تحقيق ماهية الـكائن نفسه ، يشابه أو يطابق تـكوين العالم كما ذكرنا سابقا ، ولذا فأن بعض العلوم تحت ظواهر هـذا التـكوين قد استعملت (الغيبيات) القديمة على هذا المعنى الثنائى ، كما وجـد أيضا فى كل أنواع التعاليم التى كانت ترمى إلى نفس الغرض بين الأمم الشرقية . وفى الغرب يظهر ، أن مثل هـذه التعاليم وجدت فى زمن

(صورة سقراط . لمناسبة ذكر اسمه فى المقال)

القرون الوسطى ، ولو أنها فقدت الآن تمـاما ، لدرجة أن غالبية الغربيين ليس عندهم أقل فـكرة عن طبيعتها ، أو وجودها ، أو مكانها .

مـا سبق ترى أن المعرفة الحقيقية ، ليس طريقها العقل بل طريقها النفس والروح . ويمكن أن نضيف إليهما ، الـكائن الـكلى ، لأنها ماهى إلا الأدراك الـكلى لهـذا الـكائن فى كل حالاته ، وهذا هو نهاية و كمال المعرفة ، والحصول على الحـكمة السامية . وحقيقة كل مايختص بالنفس ، ومايختص بالروح أيضا يظهر فقط الدرجات فى هذه الطريق إلى الجوهر الباطنى ، أى النفس الحقيقية ،

وهذا يمكن إدراكه فقط عند مايصل الكائن إلى مركزه الخاص ، متحدة كل أجزاء فؤاده ومركزه فى نقطة واحدة . عندها تظهر له كل الأشياء تحتويها جميعها تلك النقطة ، كما كانت فى مبدأها الأول ؛ وهذا يمكنه أن يعرف كل الأشياء ، كما هى فى نفسه ، ومن نفسه ، كما يظهر الوجود الكلى الأوحد فى وحدة جوهر الفرد : —

ومن السهل أن نرى الفرق بين هذا ، و بين علم النفس فى المعنى الحديث فأن الأول يسمو على الثانى بمعرفة للنفس أصح وأعمق ، والثانى ماهو إلا خطوة أولى فى الطريق . و يجب أن نلاحظ أن المعنى لا ينبغى أن يقصر على النفس ، لأن كلمة « النفس » مستعملة فى اللغة العربية بما يطابقها فى اليونانية « بسيخى » لا يظهر معناها إلا فى الجملة الأصلية التى تبحثها . فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يسرى لهذه الكلمة المعنى الدارج ، بل لابد أن يكون لها معنى أكثر سموا يجعلها مطابقة لكلمة « ذات » ويجعلها تطابق النفس الحقيقية . ولدينا مايثبت هذا المعنى فى الحديث الشريف ، الذى يطابق الجملة اليونانية ، هو « من عرف نفسه فقد عرف ربه . »

فعند مايعرف الأنسان نفسه ، و يعرفها حقا فى جوهره الباطنى ، أى فى مركز كائنه عندئذ يعوف ربه . فأذا عرف ربه ، عرف كل الأشياء التى منه تصدر وإليه ترجع . يعرف كل الأشياء فى الوحدة السامية للمبدأ الألهى . الذى لاشىء خارج عنه على الأطلاق وهذا معنى ماقاله سيدى محيى الدين بن عربى من أن لاشىء يخلو من اللامحدود .؟

عبدالواحد يحيى